Issn:2572-0023

محب الدين الخطيب والموقف من الدعوة الفرعونية والوطنية الضيقة

د/حسين محمد الشريف
جامعة محمد بوضياف-المسيلة-

المقدمة:

بعد سقوط الخلافة العثمانية يوم 3 مارس 1924م وظهور تركيا الحديثة التي أدارت ظهرها للعالمين العربي والإسلامي بإتباعها سياسة التغريب والطلاق مع ماضيها الإسلامي. وجد العالم العربي نفسه تحت رحمة عدة أنواع ووجوه من الإستعمار، وكانت أكبر دولة عربية فيه "مصر" التي استطاعت عبر مسيرتها النضالية وحركاتها الوطنية السياسية أن تتحصل على نوع من السيادة عبر عدّة اتفاقيات مع بريطانيا أهلتها أن تتمتع بنوع من الاستقلال والسيادة وأن تكون وجهة وقبلة أحرار العرب وحركاتهم التحرّرية، غير أن ذلك لم يرق لبريطانيا التي كانت تحارب وتتصدى لكل ما هو أصيل وعريق ولكلّ ما يمتّ إلى الوحدة والقوة في التاريخ المصري حتى لا تكون أرض الكنانة قدوة للعالم العربي في نهضتها الفكرية والتحرّرية... شجعت دعوة المصريين للعودة إلى العمق الإثني، والوثنيات القديمة، وفسحت المجال في أواخر القرن 19م وبداية القرن العشرين للدعوة إلى إحياء أمجاد الحضارة الفرعونية وجعلها عنوان السيادة المصرية. وهذا ما سنحاول التطرق له من خلال هذه المقالة عبر جملة من التساؤلات، منها: من هم المنادون بهذا الاتجاه؟ وما هي مرجعيتهم وثقافتهم؟ وكيف كان موقف محب الدين الخطيب [1] وغيره من العلماء من الفرعونية والوطنية الضيّقة؟ وما المصير الذي آلت إليه؟

(1)محب الدين الخطيب: سوري النشأة ولد في دمشق عام 1886م وتوفي في القاهرة عام 1969م التحق بكلية الآداب والحقوق في اسطنبول عام 1905م أسس بها رفقة الأمير الشهابي جمعية النهضة العربية عام 1907م لاحقته السلطة العثمانية لنشاطه القومي فهرب إلى اليمن ثم عاد إلى سورية بعد الانقلاب العثماني عام 1908م بعدها هاجر إلى مصر عام 1909م. شارك في الثورة العربية الكبرى عام 1916م وحرّر جريدة القبلة الناطقة باسمها، ثم تولى رئاسة تحرير جريدة العاصمة في العهد الفيصلي بسورية التي غادرها إلى مصر. أنشأ في مصر مجلة الزهراء ثم صحيفة "الفتح" 1926-1948م. كان من مؤسسي جمعية الشبان المسلمين عام 1928م بالقاهرة، سخّر قلمه وفكره لخدمة القضايا العربية والإسلامية عقب سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924. "انظر مذكرات محب الدين الخطيب التي نشرها الدكتور صالح الحرفي لأول مرة في حلقات عديدة في مجلة الثقافة التي كان يشرف عليها ابتداءً من العدد: 06 الصادر في ذي القعدة 1391هـ يناير 1972م وما يليه".

أولا: الفرعونية بين دعاتها ومعارضيها

أ- دعاتها وتصدي الخطيب لهم:

في ظل التبعية الاستعمارية ومحاربة الاستعمار لكل ما هو أصيل وعريق ولكل ما يمتّ إلى الوحدة والقوة وفي إطار سياسة "فرّق تسد" ظهرت في مصر أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دعوات عدة إلى إحياء مجد الحضارة الفرعونية وجعلها عنوان السيادة المصرية. والمنادون بهذا جلهم ممن تخرّجوا من جامعات أوربا وتشبعوا بالثقافة الغربية.

وقد ردد عدد من المثقفين المصريين دعواتهم الممجدة للفرعونية، وتصدى لهم الخطيب منتقدا وموجها، ومن هؤلاء نذكر:

- **لطفي السيد وطه حسين:**

وهما من كبار وأعمدة دعاتها فهذا لطفي السيد يطلب من المصري أن يتمسك بجنسيته قائلا: (...إنك أيها المصريّ اللبق يجب أن تحافظ على جنسيتك لأنك حين تذهب إلى بلد أجنبي لا يدعونك بقولهم يا عربي ولكنهم ينادونك يا مصري. وأن الأمم الشرقية يجب أن تتّحد ويكون الاتحاد شاملا لأمم الشرق الكبرى كالصين واليابان فهل تدخل أيها المصري ذلك الاتحاد تحت جنسية مستعارة هي الجنسية العربية؟ وهل ترضى لنفسك ذلك؟) [1].

وهذا طه حسين[*] هو الآخر يعتز بالفرعونية ويصرّ على عدم التخلّي عنها حيث قال في جريدة المكشوف "البيروتية" عام 1938م مخاطبا الشباب: (... لا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة، فالفرعونية متأصّلة في نفوسهم وستبقى كذلك... لا تطلبوا من مصر أن تتخلّى عن

(1)- أحمد حسين: "الحضارة العربية والحضارة الفرعونية"- الفتح- العدد: 230- 27 رجب 1349هـ السنة: 5- ص: 2.

(*)- طه حسين: 1889-1973م. ولد في مصر العليا وفقد بصره طفلا درس في الأزهر والجامعة المصرية والسوربون بباريس ونال أعلى الدرجات العلمية انتدب عميدا للجامعة المصرية بالقاهرة ثم جامعة الإسكندرية ثم وزيرا للمعارف عام 1950م من آثاره: الأيام، في الأدب الجاهلي، مع أبي العلاء في سجنه، مستقبل الثقافة في مصر،... وهو ناقد وقصاص ورجل اجتماع. راجع حنا الفاخوري- الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب الحديث"، دار الجيل، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

مصريتها وإلا كان معنى طلبكم: اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام وتغاضي عن جميع الآثار التي تزين متاحفك ومتاحف العالم وانسي نفسك واتبعينا...) [1].

ولم يقف عند هذا الحد بل يجزم بأن أكثرية المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي حيث قال: (... إن الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء...) [2].

وقد سار في نفس الاتجاه الدكتور حسين كامل سليم القائل: (... نحن مصريون أولا وأخيرا...). وأيضا الدكتور فكري أباظة المصرّح: (... نحن مصريون قدماء لا شيء غير ذلك...) [3].

وأمام هذه الزوبعة التي أثارها دعاة الفرعونية وقف الخطيب وغيره مفندا آراءهم مدافعا عن عروبة مصر داعيا إياها إلى رفع رايتها لما تملكه من اعتبارات جمّة تهيئها لرفع هذه الراية راية العروبة.

فيقول: (... فمصر كانت من الأزل وستبقى إلى الأبد مهجرا للعنصر العربي الأصيل لا من حدود مصر الشرقية فقط بل ومن حدودها الغربية أيضا ولا أبالغ إذا قلت أن العرب وصلوا إلى مصر من بابا ثالث —وهو باب المندب– فساروا مع النيل من منابعه إلى حيث يصب في البحر المتوسط وامتلأت بهم هذه الديار في أجيال كثيرة...) [4].

ولكي يؤكد عروبة مصر يرجع إلى اللغة التي كان ينطق بها قدماء المصريين فثلاثة أرباع كلماتها عربية: (... كان فقيد تاريخ مصر القديم "أحمد كمال باشا" قد ألف اكبر معجم لقدماء المصريين في عشرات الألوف من الصفحات تبين له أن ثلاثة أرباع الكلمات التي كان ينطق بها قدماء المصريين يوجد

(1)– أبو خلدون ساطع الحصري: "أراء وأحاديث في الوطنية والقومية"– مركز دراسات الوحدة العربية– سلسلة التراث القومي– الأعمال القومية لساطع الحصري– (1) طبعة خاصة ط: 2– بيروت–لبنان– يونيو 1985م– ص: 76، 77.

(2)– المصدر السابق– ص: 78.

(3)– أبو خلدون ساطع الحصري: "العروبة أولا!"– مركز دراسات الوحدة العربية– سلسلة التراث القومي– الأعمال القومية لساطع الحصري– (9) طبعة خاصة ط: 2–بيروت–لبنان– 1985م– ص: 83.

(4)– محب الدين الخطيب: "العروبة والفرعونية"– الفتح– العدد: 229– 20 رجب 1349هـ السنة 5– ص: 2.

في اللغة العربية الحديثة ما يقابلها لفظا ومعنى فتكوّن عنده بسبب ذلك اعتقاد جازم بأن العرب والمصريين من أصل واحد...) [1].

وحتى يدحض ادعاءات الفرعونيين وأكاذيبهم على أن مصر فرعونية فقط يبيّن الخطيب بان مصر كانت وسيلة لتوثيق الارتباط والاتصال مع سائر الأقطار العربية حيث يقول: (... إن مصر ما برحت تتغذى من قبل فجر التاريخ بملايين من جيرانها الغرّ الميامين بيض الوجوه القادمين عليها من طريق سيناء، وإذا كان "مينا"(*) أقدم رجل عرفه التاريخ من هؤلاء الآسيويين فما هو بأوّلهم لأن الطريق كان موجودا قبل "مينا" وكان يتدفق منه القادمون...) [2].

وفي مضمار آخر يرجع أصول الشعب المصري إلى شبه الجزيرة العربية قائلا: (...إن جزيرة العرب تغذي مصر بأبنائها من قبل "مينا" ومن بعد "مينا" ومن قبل عمرو بن العاص ومن بعد عمرو بن العاص، وإن فرعون نفسه الذي قال عنه كاتب حديث عهد بهذه الصناعة وهذه المعارف إنه "أعلى وأكبر". كانت تجول في عروقه دماء غير قليلة من الدماء التي كانت تجول في عروق عدنان بل عن ذلك الكاتب نفسه لا يستطيع أن يفصل دم العرب عن عروقه... وهل البراءة في مصر من العربية إلا الانتحار بجميع معانيه!...).

ويبين بأن مصر لم تكن في قديم تاريخها بعيدة عن العروبة لسانا وأن القوميتين القديمتين "المصرية والعربية" تتفقان إلى حد كبير ويضرب لنا بذلك مثلا: برحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام من وطنه الأول (العراق) إلى سورية ثم إلى فلسطين وانتقاله من فلسطين إلى مصر وإقامته فيها مدة تزوج فيها من هذه البلاد ورزق من زوجته المصرية ابنه إسماعيل، ثم انتقل بزوجته وابنه إلى الحجاز وتركهما هناك... إن إبراهيم عليه السلام لم يكن في حاجة إلى ترجمان لأن اللغة التي كانت يومئذ في العراق وفي سورية وفي

(1)- محب الدين الخطيب: المصدر السابق.

(*)- مينا أو مينه أو مينس Narmer ou Menés: مؤسس السلالة الفرعونية الأولى ومشيد مدينة ممفيس يعتبره المؤرخون مؤسس المملكة المصرية وفاتحة قيام الأسر التي حكمت مصر وعددها ثلاثين أسرة. "المنجد في اللّغة والأعلام"، الطبعة 27، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1984م، ص 701.

- (Egypte ancienne) Mémo Larousse- encyclopédie- Paris-CEDEX- 1990-06- P 257.

(2)- محب الدين الخطيب: "العروبة والفرعونية"- المصدر نفسه.

فلسطين وفي مصر وفي الحجاز إنما كانت متقاربة جدا لأنها ترجع إلى أصل واحد بل لعلها لهجات تجمع بينها لغة واحدة كما هي الحال الآن في هذه الأقطار نفسها. فالعراقيّ والحجازيّ يختلفان في اللهجة ولكنهما يتفقان في أصل اللغة.... (1).

والخطيب لا ينكر على المصري مصريته بل يراها أحد أركان العروبة الصلبة فيقول: (... نعم إن المصري مصري ولكن مع أنه مصري فهو عربي فمصر وطنه والعربية جنسيته المشتقة من لغته ومن ثقافته ومن أربعة عشر قرنا على الأقل في تاريخه القومي. كما أن العراقي عراقي وهو مع ذلك عربي وكما أن السوري سوري ومع ذلك عربي وكما أن المغربي مغربي وهو مع ذلك عربي...) (2).

ويتحدى دعاة الفرعونية أن يستطيع أي مصري أن يثبت فرعونيته قائلا: (... لا يوجد في مصر مصرّي واحد يحفظ في مستندات أسرته ما يدّل على أنها متسلسلة في مصر من أيام "مينا" أو من أيام "كليوباترا"(*) ولكنه أمام حقيقتين: أولاهما أنه مصري لأنه مولود في مصر.

والثانية أنه عربي لأن لغته العربية... وهو أعرق في مصريته من نابوليون في وطنيته الفرنسية لأنه مولود في مصر حقا وأما نابليون فمولود في جزيرة كورسيكا. وفي عروبته أعرق من نابليون في قوميته الفرنسية لأنه ولد متملكا باللغة العربية ولا لغة غيرها ونابليون ولد في بيت يتكلم فيه أبواه وذووه باللغة الايطالية...) (3).

ويتعجب في ذهول تام كيف أن الأتراك الحديثي العهد يعتزون بقوميتهم ويتمسكون بها أيما تمسك في حين أن بعض المصريين يتنكرون لقوميتهم العربية التي مضى عليها أربعة عشر قرنا.

(1)- محب الدين الخطيب: " العروبة والفرعونية"- الفتح- العدد: 229- المصدر السابق.

(2)- محب الدين الخطيب: "القومية العربية ومكانة مصر منها"- الفتح- العدد: 362- المصدر السابق- ص: 6.

(*)- كليوبترا Cléopâtre: اسم سبع ملكات لاجيّات (البطالسة) في مصر، أشهرهن: 5- ولدت في الإسكندرية سنة 69 ق.م ملكة مصر 51-30 ق.م حاولت إعادة بناء مجد الدولة اللاجية، فتنت قيصر بعد معركة فرسال 48 ق.م وولدت له القيصريون ثم مرقس انطونيوس الذي أنجبت منه ثلاثة أولاد. ضمت إلى ممتلكاتها أجزاء من فنيقيا وقبرص واليهودية، أهلت عام 34 ق.م انتحرت بعد معركة أكسيوم. (المنجد في اللّغة والأعلام) - المرجع السابق- ص: 593.

(3)- محب الدين الخطيب: "العرب"- الفتح- العدد: 434- المصدر السابق- ص: 2.

(... مصر تتكلم العربية منذ أربعة عشر قرنا ومع ذلك لا يزال يوجد فيها من يريد أن يقول أنه غير عربي وأكثر القائلين بالعصبية التركية في الأناضول يرجعون بأنسابهم إلى الجركس أو الكرد أو اللاز أو الأرناؤوط بل كثير منهم من مسلمة الروم والأرمن والكرج ولم يتكلموا التركية إلا من مائة سنة أو مائتي سنة بالأكثر ومع ذلك يعتزّون بالتركية ويعملون لها... فهل المائة سنة أو المائتان كافية ليكون القوم هناك أوفياء للقومية التركية إلى هذا الحد والأربعة عشر قرنا التي مضت على العروبة في مصر غير كافية لجعل مصر تعلن في غير خوف ولا إحجام أنها عربية...) [1].

ويؤكد أخيرا بان الدعوة إلى الفرعونية ما هي إلا دسيسة من الدسائس المعادية للعروبة ووحدتها وشق للصف العربي الذي هو رأس الأهداف الاستعمارية. (...إن محاولة إقناع مصر بأنها غير عربية ليست إلا دسيسة دستها يد من مصلحتها أن تتمزق الشعوب العربية وأن تتقاطع وأن لا يتعاون بعضها مع بعض فليربأ كل مصري بنفسه عن أن يجعلها آلة تعبت بها تلك اليد الدساسة لتنال مأربها من بقاء الشرق العربي ضعيفا إلى الأبد...) [2].

ب– معـارضيهـا:

ويشارك الخطيب عدد كبير من أعلام الأمة العربية الذين تصدوا لدعاة الفرعونية منبهين إلى زيفها وبطلانها [3] مذكرين المصريين خصوصا والعرب عموما على أنها دسيسة تهدف إلى تمزيق الشعوب العربية وإبعادها عن التعاون فيما بينها وبالتالي إضعافها لتصبح لقمة سائغة في أيدي أعدائها والمتربصين بها ومن هؤلاء نذكر:

1– الأستاذ أحمد صبري:

(1)– محب الدين الخطيب: "القومية العربية ومكانة مصر منها"– الفتح– العدد: 362– المصدر السابق– ص: 7، 8.

(2)– محب الدين الخطيب: "العروبة والفرعونية مجال جديد لنشاط الشباب"– الفتح– العدد: 229– المصدر السابق– ص: 2.

(3)– راجع في ذلك –النجيمي "قصيدة شعرية" مصر العربية ترد على رأس دعاة الفرعونية–الفتح– العدد: 367–29 جمادى الآخرة 1352هـ– السنة –8–ص: 1، 2– وأنظر كذلك شعر الشيخ محمد الزين: "مصر بين الإسلام والفرعونية"– الفتح– العدد: 491– 10 محرم 1355هـ– السنة –10– ص: 7.

الذي ألف كتابا اسماه "قناع الفرعونية" استعرض فيه المزاعم المختلفة لدعاة الفرعونية ونبه بأنها عودة إلى الاستبداد وسلطة الواحد.

(...وأول ما يتبادر إلى (فرعون) وفرعون هذا ليس إلا رمزا من الحكومات الاستبدادية البائدة.

فالفرعونية إذن هي نوع من النظم التي ينهض عليها الحكم الاستبدادي الجائر وهذا النظام يقترن بما يليق به من الأوضاع الاجتماعية والصور العقلية التي تبرر الظلم وتستطيب الخنوع وتساعد على الترفيه عن الطبقة المحدودة الحاكمة التي تستند إلى ما تخترعه من أسانيد الحقوق المقدسة...).

ثم يتساءل: هل الفرعونية بكل إبعادها تستطيع أن تمنح المصري المولع بالحرية والمساواة ما وجده ويجده في الإسلام؟

(...هل يستطيع المصري المتشوّق للحياة الصحيحة أن يجد في شعار "الفرعونية" من قوة الدفع إلى الحرية والمساواة ما يجده المسلم في كلمة "الإسلام" وفي تاريخ هذه الكلمة؟ فإذا لم تكن الفرعونية نظاما اجتماعيا ولا قوة دفع إلى الحرية والمساواة فكيف تكون في النهاية إذن هذه اللفظة المشؤومة التي شبعت منها في جو المجتمع الحديث...) [1].

2- الأستاذ أحمد حسن:

يرى بأن الفرعونية كلغة ضعيفة ولا تستطيع مجاراة اللغة العربية الفنية بآدابها وفنونها وكعادات وتقاليد فإن الفرعونية أصبحت لا تتناسب والعصر:

(...إن المدنية تشمل اللغة والتشريع والأدب والفنون ثم الأماني القومية أما اللغة الفرعونية فلا يمكن أن تقوم بإزاء اللغة العربية وأما التقاليد والعادات فحسبكم أن الفراعنة كانوا بثياب لا تناسب العصر وبأسماء مستهجنة "كحرحور" مثلا وبعبادة وثنية لا ترضونها أنتم أيها المسلمون وبتشريع لا يوافق إلا الإنسان في أطواره البربرية. وأما الأدب والفنون فحسبكم ما زخرت به الحضارة العربية من آداب عالية وان فيها القرآن...) [2].

(1)- أحمد صبري: "قناع الفرعونية" – الفتح- العدد: 801- المصدر السابق- ص: 14.

(2)- أحمد حسين: "الحضارة العربية والحضارة الفرعونية"- الفتح- العدد: 230- المصدر السابق- ص: 7.

3- أبو خلدون ساطع الحصري:(*)

وكان من الرافضين لفكرة الفرعونية حاربها علنا واظهر بطلانها بكل ما أوتي من حجج وأدلة ورآها عامل هدم وإضعاف للعروبة ووفقا لمسارها الوحدوي التقدمي، فالفرعونية عنده انتهت وزالت كنظام ولغة لكنها باقية كأثر:

(...فإن العهود الفرعونية مدفونة تحت رمال الزمان منذ عدة آلاف من السنين والمصريون الحاليون لا يفهمون شيئا من لغة الفراعنة ولا يؤمنون بشيء مما كان يؤمن به هؤلاء فليس من المعقول أن يفكر أحدهم في العودة إلى تلك العهود البائدة والسعي وراء تلك العهود والسعي وراء إحياء تلك الأموات المحنّطة...) (1).

فمثلما يحق للمصريين الافتخار والتباهي بالأمجاد التي حققتها الحضارة الفرعونية، فإنه لا يجوز لهم أن يتنكروا للعروبة: (...لا شكّ في أنه يحق لأبناء مصر أن يفتخروا ويباهوا بالأمجاد التي حققتها الحضارة الفرعونية في تلك العصور العريقة في القدم... غير أنه لا يجوز للمصريين أن يتنكروا للعروبة بحجة الارتباط بالحضارة الفرعونية ويجب على كل مصري أن يعرف حق المعرفة بأن الحضارة الفرعونية مثل الحضارات السومارية والآشورية والفينيقية ماتت واندثرت فلا يمكن أن تعود إلى الحياة... وأما العروبة فإنها تختلف عن ذلك كل الاختلاف إنها لم تكن من نوع "الماضي المحنّط" بل هي من نوع "الحاضر الحي" ولا نغالي إذا قلنا أنها تتدفق حيوية منذ أن استفاقت من سباتها الطويل) (2).

(*)- ولد بصنعاء عاصمة اليمن عام 1879م ينتمي إلى عائلة عربية أصلها من الحجاز قدمت إلى حلب في القرن 9هـ، اشتغل في السلك الإداري العثماني في البلقان حيث درس على الطبيعة نشوء القوميات البلقانية قبل الحرب العالمية الأولى وكذا تعصب جماعة الاتحاد والترقي للقومية الطورانية فولد لديه التعصب للقومية العربية وتسخير طول حياته للنضال من أجلها والدعوة لها حتى لقب "بمنظر القومية العربية". التحق بالملك فيصل عام 1919م وأصبح وزيرا للمعارف في دولته بدمشق. بعد الانتداب الفرنسي على سورية فاوض الجنرال غورو قبيل معركة ميسلون عام 1920م. خرج من سورية مع الملك فيصل بن الشريف حسين والتحق به عندما ولي ملكًا على العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافة في عام 1941م جرّد من جنسيته العراقية واخرج من العراق لتأييده لثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنجليز وبعد تأسيس جامعة الدول العربية، عمل مستشار اللجنة الثقافية. أسس عام 1953م معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة وأصبح مديرا له. توفي في بغداد عام 1968م ودفن في مقبرة الإمام الأعظم. أنظر (أبو خلدون ساطع الحصري، الأعمال القومية الساطع الحصري (3))، "صفحات من الماضي القريب"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، لبنان، 1985م، ص 82.

(1)- أبو خلدون ساطع الحصري: "العروبة أولا"- المصدر السابق- ص: 82.

(2)- أبو خلدون ساطع الحصري: "العروبة أولا"- المصدر نفسه.

ولم تقتصر ردود محاربي الفرعونية ومفنّدي دعاتها والعاملين من أجل إحيائها على الجرائد والمجلات والخطب والمحاضرات فقط بل شملت حتى إقامة مناظرات ومنها المناظرة التي جمعت كلا من السيد (رشيد رضا) مدافعا عن الحضارة العربية ووجوب تمسك مصر بها في حين مثّل الطرف الآخر الأستاذ "محمد لطفي" مدافعا عن الفرعونية وفكرة رجوع مصر إليها [1].

وكان من نتيجة تلك المناظرة أن أفحم السيد رشيد رضا دعاة الفرعونية وعلى رأسهم محمد لطفي ومن والاه واظهر بما لا يقبل الشك بأنها دعوة وثنية القصد من وراءها فصل مصر عن عروبتها وأخواتها في المشرق والمغرب العربيين ومروّجوها من سماسرة وأعوان الاستعمار والصهيونية العالمية الذين يعملون بمبدأ «فرّق تسد». وكما فشلت الدعوات إلى الآشورية والفينيقية والنوبية والبربرية فمآل هذه الدعوة إلى ما آلت إليه تلك الدعوات.

نعم إن التباهي والاعتزاز بحضارة الأقدمين وما أبدعوه وتفوّقوا فيه على الأمم الأخرى أمر مشروع ولكن أن تكون عامل تهديم وتفريق بين أبناء الأمة الواحدة فهذا شيء مرفوض لأنه من بناة أفكار الاستعمار الذي يسعى دائما إلى تمزيق الأمم وفي الوقت نفسه يعمل على توحيد نفسه ذلك لبسط سيطرته على مقدرات البلاد والعباد وخاصة الأمة العربية التي تسيطر على منافذ البحار استراتيجيا بالإضافة إلى رصيدها الحضاري ودورها الفعال في تقدم وبناء الحضارة الإنسانية.

ثـانيـا: الخطيب والوطنية الضيّقة

لم تغب أساليب الدول الاستعمارية في التفريق والتمزيق بين البلاد العربية وبين البلاد الإسلامية عن ذهن الخطيب فكشف لقرائه هذه الأساليب التي تدعو إلى الوطنية الضيقة والمفهوم الوطني وعلى سبيل المثال:

صار "نوري السعيد" في العراق يفهم أن نجدا غريبة عن العراق وأصبح اللبناني ينكر أن لبلاده صلة بسورية مع أن رابطة اللغة هي الرابطة الطبيعية التي يتفاهم بها الناس وعنده أن أخوة الإسلام أقوى من رابطة الوطن الواحد.

(1)- أحمد حسين: "الحضارة العربية والحضارة الفرعونية"- الفتح- العدد: 230- المصدر السابق- ص: 7.

ويكشف لقرائه أن دمشق أقل البلاد تأثرا بعدوى هذين المرضين ويستشهد على ذلك بالمظاهرة العنيفة التي قابل بها الدمشقيون الوزير الانجليزي "بلفور" صاحب الوعد المشؤوم لشذاذ الآفاق عندما دخل دمشق عام 1929م مما اضطره إلى مغادرتها خفية وكذلك كيف أن شباب دمشق انزلوا العلم اليهودي عن سيارة فرقة لاعبي كرة القدم اليهود واحرقوه عندما أرادوا الطواف بسيارتهم في دمشق [1].

أن يكون الخطيب وطنيا وقوميا فهو أمر طبيعي مادام الإنسان ينشدّ إلى الأرض والوطن حيث نشأ وترعرع وتغذى أما مناداته بالقومية ووحدة المصير العربي فذلك يعتبر أمرا طبيعيا أيضا مادام من الناطقين بالضاد. وبالنسبة لدعوته إلى الأمة الإسلامية فنابعة من أنه رجل عقيدة ودين.

وهو يحارب الوطنية إذا تحولت إلى عصبية وطنية لأن المسلمين مهما اختلفت أوطانهم فهم في دين الله إخوان ويضرب مثلا على ذلك تسليم أهل الفضل والنباهة من المصريين مقاليد الزعامة الفكرية والسياسية عن رضا وطيب خاطر إلى الزعيم الكبير جمال الدين الأفغاني ويضيف مثالا آخر (محمد رستم حيدر) اللبناني الأصل الذي وقف مواهبه على خدمة العراق منذ استقلاله حتى احتل منصب وزير المالية هناك [2]. وكمرجعية تاريخية تدحض كل إرهاصات أعداء العرب والشعوبيين يذكّر الخطيب بسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي عندما ساح من العراق إلى الشام فمصر فالحجاز كان يتخاطب مع أهل هذه البلاد بلغة بلاده العراقية فيفهم الجميع كلامه لأن اللغات التي كانت سائدة فيها ما هي إلا لهجات متقاربة.

ولهذا نجده وقد استقر به المقام في مصر يتخذ هذه الحقيقة التاريخية قاعدة لدعوة الناشئة فيها وفي الشام والعراق وجزيرة العرب إلى الإيمان بالقرابة الجنسية واللغوية بين أسلافهم وهذا مما يوثق أواصر الناطقين بالضاد والعقيدة القومية [3].

(1)- محب الدين الخطيب: "القومية وشباب دمشق بمناسبة حادثة العلم الصهيوني"- الفتح- العدد: 149- 30 مايو 1929م السنة الثالثة- ص: 10.

(2)- محب الدين الخطيب: "درس من بلاد التعصب الوطني"- الفتح- العدد: 694- 14 محرم 1359هـ العام: 14- ص: 5.

(3)- محب الدين الخطيب: "تعليم التاريخ القومي- إفراط وتفريط"- الفتح- العدد: 561- 28 جمادى الأولى 1356هـ العام: 12- ص: 3، 4.

وبناء على ما سبق ما غفل الخطيب عن الإشارة من طرف خفي إلى أن وزارة المعارف المصرية والشامية والعراقية قد ارتكبت خطأ جسيما عندما ألحقت تاريخ السيرة النبوية بمادة التربية الدينية وليس بكتاب التاريخ حتى اعتبر هذا بمثابة الإهمال الشنيع الذي يخالفون فيه الأمم الراقية غربا وشرقا إذ جمعت كل صغيرة وكبيرة من ماضيه لتجعله حافزا لتنمية القوة والعزة والافتخار كما فعل الألمان والانجليز والفرنسيون [1].

ويشير إلى أن الوطنية التي جاءت بها جماعة الاتحاد والترقي كانت وطنية قائمة على التعصب للعنصر التركي الأمر الذي جعل شباب الأرناؤوط والعرب والكرد والجركس ينادون بوطنيتهم وجنسيتهم التي كانت قد انصهرت في بوتقة الخلافة الإسلامية عن رضا وطيب خاطر ما داموا يعيشون في ظل الأخوّة الإسلامية التي جمعتهم ورعتهم وأنصفتهم [2].

وبالنسبة للإسلام وقضيته يذكّر الخطيب العرب والمسلمين بما قاله السياسي البريطاني (اللورد لويد من أن الإمبراطورية البريطانية لا يكتب لها بقاء ما لم تنل تأييد المسلمين في العالم تأييدا كاملا وأن الإسلام بما له من سؤدد عظيم هو قوة جوهرية للعالم.

ولهذا يتساءل الخطيب:

(إذا كان اللورد يعترف بأن الإسلام سؤددا عظيما وأنه قوة جوهرية للعالم اليوم: فكيف لا يكون قوة جوهرية لأصحابه المؤمنين به؟ ويضيف أن للإسلام تاريخا وأمجادا، وأمجاد العروبة لا ينفك تاريخها عن تاريخ الإسلام، فإذا حيل بين العروبة والإسلام كانت العروبة جسما بلا روح وكان الإسلام روحا بلا جسد، وان الروح إذا فارقت الجسم يستحيل أن يستعار له بروح أخرى هي الروح الأجنبية) [3].

ثـالثـا: تصدي الخطيب لمزاعم طه حسين

(1)- محب الدين الخطيب: "تعليم التاريخ القومي- إفراط وتفريط" – المصدر السابق.

(2)- محب الدين الخطيب: "حول الثورة الكردية" – الفتح- العدد: 210- 5 ربيع الأول 1349هـ – السنة: 5- ص: 1، 2.

(3)- محب الدين الخطيب: "أربعة عشر قرنا تناجي امة العرب فهل أصغى العراق نجواها؟"- الفتح- العدد: 488- 18 ذو القعدة 1354هـ – العام العاشر- ص: 3، 4.

للخطيب عين الرقيب فلا يغفل عن أمر من الأمور ولا مقالة من المقالات التي يعلنها للشعب بعض دعاة التفرنج والإلحاد فنجده ينبري لطه حسين الذي زعم أن الدين والعلم بينهما خصومة وخاصة في مسألة العقيدة والاعتقاد بوجود الله تعالى ونبوة الأنبياء ويعلنها صراحة بأنها ادعاء كاذب وان طه حسين قد أطلق حكما فاسدا عندما أراد أن يخضع العقائد إلى الاختبار والتجربة لأن العلوم الطبيعية تقوم على دراسة الموجودات من الكائنات وتطبيق التجربة وصولا إلى القوانين التي تحكم هذه الموجودات.

إن توجه الخطيب في التصدي لطه حسين كان بدافع الغيرة على القومية العربية والدين الإسلامي فنراه يكشف كل باطل وكل دعوة باطلة يحاول طه حسين أن يبعد بها الشعب المصري عن الدين الإسلامي كادعائه بأن الدين والعلم على طرفي نقيض وكدعوته إلى تبني العامية المصرية عوضا عن العربية الفصحى ودعوته إلى الفرعونية وذلك في مستهل عودته إلى مصر إثر إنهائه لدراسته بفرنسا [1].

كما دحض الخطيب مزاعم طه حسين المادي النزعة من أن ابن خلدون قد كذب في ذكره الكتب التي درسها في حداثته وصباه. وأن حادثة إبراهيم وإسماعيل أسطورة وإن وردت في التوراة والزبور والإنجيل والقرآن وان اليهود الذين استوطنوا بلاد العرب هم الذين اخترعوها.

ويعلن الخطيب أن الأستاذ الأثري الكبير "ارنست سلين" الألماني الذي اكتشف قرب مدينة "نابلس" بالضفة الغربية المذبح الذي بناه إبراهيم عليه السلام والمدينة التي أنشأها ذووه ما هو إلا تأكيد للحقائق القرآنية ودحض لمزاعم طه حسين.

كما فند كذب مزاعمه فيما يتعلق بالحوادث الواردة في القرآن الكريم وأن ما كان منها معاصرا لنزول القرآن الكريم فهو صحيح وما تقدم على نزول القرآن الكريم فهو غير صحيح وأشار إلى جملة من الاختصاصيين في علوم الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان في جامعات وكليات فرنسا القائلين أن

(1)- محب الدين الخطيب: "العلم والدين في نظر الدكتور طه حسين" –الفتح- العدد: 6- 12 محرم 1345هـ/ 22 يوليو 1926م- السنة الأولى- ص: 2، 3. وانظر كذلك- السياسة الأسبوعية- عددها الصادر يوم 17 يوليو 1926م- فيه مقال تحت عنوان: العلم والدين – للدكتور طه حسين.

الدين والعلم صنوان لا يفترقان وهو ما قاله من قبل الفيلسوف العربي المسلم "ابن رشد". وهو ما توصل إليه في زماننا العلامة الفرنسي موريس بوكاي [1] في كتابه: التوراة والقرآن في ميزان العلم.

(إن طه حسين المتجرد من القومية [2] والدين لابد له من أن يتعمد المغالطة والمواربة في كثير من مؤلفاته ليلفت الأنظار إليه ويخفف أعباء وثقل ما يعانيه من مركب نقص وعقدة نفسية صاحبته منذ طفولته).

وفي صدد تهجم الدكتور طه حسين على نظام القضاء الشرعي ومن ينحون نحوه من دعاة التجديد يذكر الخطيب هؤلاء بما كتبه الأستاذ "هاشم ولي" في جريدة "وقت" التركية من أنه لما زار مدينة "بودابست" عاصمة المجر قبل وفاة الأستاذ "قمبري" المستشرق المجري الشهير وفي صدد الحديث بينهما عن "الفقه الإسلامي" أنه قال:

(إن فقهكم واسع جدا إلى درجة أنني يأخذني العجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم) كما يذكرهم بما قاله "احمد تيمور باشا" رحمه الله تعالى في وصف غزارة ينابيع الفقه الإسلامي:

(إنه لا يكاد يوجد حكم صدر موافقا للعدالة من أية محكمة من محاكم الدنيا من أول عهد البشر للقضاء إلى الآن إلا وفيه من مذاهب الفقه الإسلامي ما يوافقه ويغني عنه...).

ويبين لطه حسين ومن يؤيده أن الإسلام دواء أمراض اجتماعية تفتك الآن بالإنسانية التي غفلت عن الاستشفاء بالإسلام لأن أهله أنفسهم قد اعرضوا عن مقاصده ومعانيه فخفي جوهره عن شعوب الأرض، ويتساءل قائلا:

(1)- راجع محاضرة موريس بوكاي: الدين والكتب المقدسة والعلم- مجلة الأصالة- العدد: 63/62- أكتوبر/ نوفمبر 1978م ذو القعدة/ ذو الحجة 1398هـ-مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية مرة كل شهر بالجزائر- ص: 44 وما بعدها.

(2)- راجع في ذلك: زكي مبارك: طه حسين شعوبي مقلد لكنه متقلب حائر- الفتح- العدد: 452- 3 ربيع الثاني 1354هـ – السنة العاشرة- ص: 8، 9.

(هل في الأرض مملكة أولى من مملكة مصر بالمبادرة إلى هذه الثروة الفقهية وان تصير مصر ينبوعا جديدا من ينابيع العدالة في الأرض وفق الأحكام الشرعية الإسلامية).

وينقل ما أخبر به الأستاذ "نللينو" المستشرق الايطالي من أن حكومة تونس المحمية كلفت احد المستشرقين الايطاليين بوضع كتاب في القسم المدني من الفقه الإسلامي منظما كفقه القوانين فألف ذلك الكتاب باللغة الفرنسية وهو من أجود ما يستعان به في التشريع الإسلامي، كما أشار إلى أن القانون المدني الذي كان معمولا به في سلطنة آل عثمان كان مأخوذا من فقه أبي حنيفة [1].

وهكذا نرى الخطيب يحارب كل توجه إلى ما هو غربي ويدعو دائما إلى التمسك بأحكام الفقه الإسلامي في سن القوانين القضائية والتنظيمية ويقف في وجه المنادين بالتجديد على الطريقة الغربية ويدعم آراءه ويستشهد بالمستشرقين الذين يجعلون كلمة الإنصاف رائدهم ويرون في الفقه الإسلامي الذخر والنبع الذي لا ينضب معينه.

لم يقتصر الخطيب في حملته على طه حسين وأضاليله بما يكتبه هو بل فتح صحيفته وجعلها منبرا للأدباء والعلماء [*] للرد على مزاعمه المادية المتعلقة بالحقائق التاريخية المتصلة بالعهود القديمة للأنبياء والرسل عليهم السلام وتصوره بأن في قصص القرآن الكريم ما هو غير مقبول لأن مقبول لأن يكون في التاريخ وأن ما وقع من أحداث زمن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الصحيح [2]. والله تعالى يقول: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) [**].

(1)- محب الدين الخطيب: "توحيد القضاء المصري"- الفتح- العدد: 379- 25 رمضان 1352هـ – السنة الثامنة- ص: 1، 2.

(*)- من أمثال هؤلاء عبد الرزاق الحسني صاحب جريدة الفيحاء في مدينة –الحلة- العراقية والأستاذ الشيخ الدجوي من هيئة كبار العلماء، والعلامة محمد الخضر حسين والعلامة محمد صادق الرافعي ولطفي جمعة بك المحامي...

ولمزيد من الاطلاع راجع رأي المستشرق د-س- مرجليوث Margoliouth أستاذ العربية في جامعة أكسفورد في انجلترا –الزهراء- عدد: ذو الحجة 1346هـ من: ص- 618 إلى 629 حيث نشر الخطيب نص المقالة التي أخذ عنها طه حسين شكوكه حول الشعر الجاهلي لإجلاء فكرة انه كالببغاء لم يأت بجديد من عنده وإنما هو كلام منقول عن مستشرق شكوك مثله.

(2)- محب الدين الخطيب: "ما أعرفه عن طه حسين" – الفتح- العدد: 23- نوفمبر 1926م- السنة الأولى- ص: 8.

(**)- سورة الأنعام- الآية: 38.

لهذا لم ينس طه حسين ما فعله الخطيب به عندما تصدى لمقالاته وكتاباته أيام النظام الملكي في مصر وكيف جند له كبار الأدباء والعلماء للكشف عن كذب ادعاءاته ومزاعمه إذ زعم:

أ- بان الشعر الجاهلي مكذوب وان المسلمين اخترعوه.

ب- وأن ما في الشعر الجاهلي من كلام عن العرب لا أصل له لأن العرب ليسوا أمة كرم.

ج-أن وقعة كليب وجساس وجليلة ومقتل كليب فيها لم يكن من أجل أمر عظيم هو حفظ الجوار الذي هو شيمة من شيم العرب أيضا بل أنه كان من أجل ناقة تحلب [1].

وفيما جاء من رد على مقالاته هذه وادعاءاته المفتراة بأن ما قاله طه حسين إنما كان مأخوذا عن جهلة المبشرين كصاحب كتاب "مقالة في الإسلام" وأن ما نشره حول الشعر الجاهلي كان هو أيضا مسروقا من كلام متعصبي المستشرقين أمثال: "مارغوليث" [2].

هذا وقد أثار كتاب الأدب الجاهلي ردود فعل عظيمة لدى الأدباء والعلماء والمفكرين حتى أن الخطيب جعل هذا التصرف لطه حسين إنما كان من مبعث الشعور بالنقص الذي لازمه طوال حياته بسبب عماه المبكر وبدافع ذلك المركب النفسي وحبا في الشهرة وذيوع الصيت قام بفعلته المنكرة.

وعندما تولى طه حسين وزارة المعارف في مصر وسيطر مؤيدوه والمتزلفون له على كلية الآداب عمل كل ما في وسعه لتهميش محب الدين الخطيب [3].

مطلقا حقده الدفين عليه غير أن محاولاته لم تستطع النيل من شخصيته التي عرفت بنزاهتها وغيرتها الدينية والقومية والوطنية لأن الخطيب أصبح شبه شخصية عالمية حازت على تقدير واحترام كبار علماء الإسلام والمفكرين والدارسين الذين تناولوا شخصيته أمثال: الدكتورة سهيلة الريماوي والدكتور محمد عبد الرحمان برج والدكتورة وداد السكاكني والأستاذ احمد محمد بدوي... كما تأثر بأفكاره ومنطلقاته

(1)- عبد الرزاق الحسني: حول الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين- الفتح- العدد: 23- نوفمبر 1926م- السنة الأولى- ص: 4، 5.

(2)- للاطلاع أكثر راجع صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوي من هيئة كبار العلماء- حول كتاب الشعر الجاهلي- الفتح- العدد: 23- 13 جمادى الأولى 1345هـ/ 18 نوفمبر 1926م- السنة الأولى- ص: من 1 إلى 6.

(3)- من تصريحات الدكتور صالح الخرفي أثناء لقائي به في تونس، صائفة 1993م.

الكثير من علماء المسلمين أمثال: ابن نوح الاندونيسي ومحمد مكين الصيني وتقي الدين الهلالي... وغيرهم كثير.

الخـاتـمـة:

وفي الأخير نخلص إلى أن المفكرين المصريين الذين اعتنقوا الدعوة الفرعونية كأساس للقومية المصرية ومنهم طه حسين وأحمد لطفي السيد ورفع تلاميذهما في مصر لواء الفرعونية في محاولة للتنكر لانتماء مصر للعرب والعروبة تحت إدعاءات واهية لا أساس لها، كتأصل الفرعونية في قلوب المصريين، ومسألة الأصل والدم اللّذان لا يمتان بصلة إلى الدم العربي رغم أنه لا توجد أمة واحدة في التاريخ ترتبط بذلك، لأنه خرافة واهية لا أساس لها من الصحة، وهو ضرب من الخيال والسراب، وأمام ذلك التنظير الوهمي والعقيم، والواقع الحي، والمصالح المشتركة ووشائج القربى وصلة الرحم بين مصر والبلاد العربية تراجعت الدعوة الفرعونية أمام حقائق الواقع.

وقد قامت في مصر في تلك الأثناء أحزاب وحركات تبنت الفكرة العربية، كان من أشهرها، حزب "مصر الفتاة" الذي أسسه أحمد حسين عام 1937م، وكذلك جمعية "الشبان المسلمين" التي يعود تاريخ تأسيسها إلى عام 1927م، وانتشرت فروعها في كل من سورية وفلسطين والعراق.... دون أن ننسى الدور الفعال الذي قامت به جمعية الإخوان المسلمين في تلك الأثناء من الانفتاح على العالم العربي والإسلامي وساعدت على انتشار فكرة الوحدة العربية كقاعدة أساسية للوحدة الإسلامية، كما تحول طه حسين من داعية للفرعونية إلى داعية للعروبة، وأصبح عميدا للأدب العربي وليس الأدب الفرعوني.